

## الحمل على المعنى عند بدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ) دراسة نحوية دلالية

م. د. صلاح فرحان شتيوي سالم العنزي \*

### الملخص

يتناول هذا البحث ظاهرة نحوية دلالية بارزة في العربية، وهي الحمل على المعنى بوصفها مظهرًا من مظاهر الاتساع اللغوي، مع التركيز على تجلياتها عند بدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ). وقد سعى البحث إلى استقراء تطبيقات هذه الظاهرة في مؤلفات العيني، وتحليلها في ضوء آراء النحاة المتقدمين، للكشف عن دور المعنى في توجيه البنية النحوية. وتبين أن الحمل على المعنى ليس خروجًا اعتباطيًا عن القاعدة، بل هو نظامٌ محكوم باعتبارات دلالية وسياقية، يثري اللغة ويمنحها مرونةً تعبيرية. كما أبرز البحث مجموعة من القضايا التطبيقية، مثل اكتساب المضاف التأنيث أو التذكير، واستعمال (مَنْ) لغير العاقل، ومخاطبة الواحد بلفظ الاثنين، ونيابة حروف الجر بعضها عن بعض، بوصفها صورًا دالة على هذا الاتساع.

الكلمات المفتاحية: الحمل على المعنى، الاتساع اللغوي، بدر الدين العيني، الدلالة النحوية، التأويل النحوي

### المقدمة

إن ظاهرة الحمل على المعنى تُعدُّ من الظواهر اللغوية الدقيقة التي استوقفت علماء العربية قديمًا؛ لما تنطوي عليه من دلالة عميقة على سعة هذه اللغة ومرونتها، وما تكشف عنه من التلاحم الوثيق بين المعنى والبناء النحوي. فهي ليست بآباً جزئياً معزولاً في مسائل الصناعة، وإنما هي مظهرٌ من مظاهر حيوية العربية، تتجلى فيه سلطة المعنى في توجيه اللفظ، وتظهر من خلاله قدرة اللغة على استيعاب وجوه الاستعمال المختلفة في ضوء السياق ومقتضى المقام.

(\*) وزارة التربية/ المديرية العامة للتربية في محافظة الأنبار

Kadoomy53@gmail.com

الحمل على المعنى عند بدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ) دراسة نحوية دلالية

وتتبع أهمية هذا البحث من كونه يتناول ظاهرة تقع في صميم التفاعل بين النحو والدلالة، وهو تفاعل يمثل ركيزة أساسية في فهم النصوص العربية، ولا سيما النصوص التراثية التي تتجلى فيها دقة العلماء في مراعاة المعنى عند توجيه الأبنية والتراكيب. وتزداد أهمية الموضوع لاتصاله ببدر الدين العيني، ذلك العَلَم الموسوعي الذي أفاد من رسوخ قدمه في العلوم المختلفة في بناء رؤية لغوية دقيقة، بدا فيها أثر المعنى واضحاً في تفسير الظواهر النحوية وتوجيهها.

وقد جاء اختيار هذا الموضوع لما لظاهرة الحمل على المعنى من حضور بين في القرآن الكريم وكلام العرب، ولما تفرضه الحاجة العلمية من إعادة النظر فيها من خلال دراسة تطبيقاتها في التراث اللغوي عند أحد أعلامه الكبار، فضلاً عن الرغبة في إبراز فاعلية المعنى في توجيه القواعد النحوية، والكشف عن أن ما يُظنُّ في ظاهره خروجا عن الأصل، قد يكون في حقيقته وجهاً من وجوه الاتساع المعبر الذي جرت عليه سنن العربية في الاستعمال.

ويروم هذا البحث بيان مفهوم الحمل على المعنى وتأصيله في التراث النحوي، واستقراء تطبيقاته عند العيني وتحليلها، والكشف عن أثر المعنى في توجيه البنية النحوية، مع النظر في مواقف النحاة من هذه الظاهرة وتقويمها في ضوء الشواهد التطبيقية. أما إشكالية البحث فتتمثل في مساءلة هذه الظاهرة من حيث طبيعتها وحدودها، ومدى مشروعيتها في نظام العربية، وبيان أثر المعنى في توجيه البنية النحوية عند العيني، وهل يُعدُّ الحمل على المعنى خروجا عن الأصل، أم هو صورة من صور الاتساع المنضبط، وما الضوابط التي تحكمه، والأسس التي تمنحه مشروعيته العلمية.

وقد اقتضت طبيعة البحث اعتماد المنهج الوصفي التحليلي، بتتبع الظاهرة في نصوص العيني، ووصف مواضعها، وتحليلها في ضوء آراء النحاة المتقدمين، مع الإفادة من المنهج الموازن عند الحاجة؛ للموازنة بين توجيهات العيني وتوجيهات غيره من العلماء، وصولاً إلى رؤية علمية أكثر دقة واتزاناً.

### أولاً: التعريف بالإمام بدر الدين العيني

يُعدُّ بدر الدين محمود بن أحمد العيني من الأعلام الموسوعيين في القرن التاسع الهجري؛ إذ جمع بين المعارف اللغوية والحديثية والفقهية والتاريخية، وعُرف بالعيني نسبةً إلى عين تاب، مع تعدد كناه وألقابه التي تعكس مكانته العلمية والقضائية. وُوُلِدَ سنة (٧٦٢هـ)، ونشأ في بيئة علمية ساعدت على تفتح مبكر لمداركه، فنهيات له أسباب التكوين المعرفي الذي ظهر أثره لاحقاً في تصانيفه وشروحه (العسقلاني، ١٩٩٨م، صفحة ٤٣٢) (الزركلي، ٢٠٠٢م، صفحة ٧/١٦٣).

نشأ العيني في بيت علمٍ وصلاح، وتلقى مبادئ العلوم على شيوخ بلده، ثم اتسعت رحلته العلمية إلى

حلب وبلاد الشام والحجاز ومصر، فأفاد من شيوخ عصره في الفقه والحديث واللغة والنحو. ولم تقف سيرته عند حدود التلقي، بل انتهت إلى ممارسة التدريس والإفتاء وتولي مناصب علمية وإدارية متعددة، حتى عدّ من أبرز من جمع بين القضاء والحسبة ونظر الأعباس في عصره (العسقلاني، ١٩٩٨ م، صفحة ٤٣٢) (السخاوي، د.ت، الصفحات ١٠/١٣١-١٣٥).

وتأكد منزلته العلمية فيما أثبتته المترجمون له من ثناء بالغ؛ فقد وُصف بأنه فريد عصره ووحيد دهره، وأُثني عليه بسعة مشاركته في الفنون، وقوة حفظه، وغرارة تصنيفه، وسرعة كتابته. وتكشف هذه الشهادات المتضافرة عن أن العيني لم يكن مجرد شارح أو ناقل، بل كان صاحب حضور علمي مؤثر في مجالات متعددة، الأمر الذي رسخ اسمه في طبقات المؤرخين واللغويين والمحدثين (الخبلي، ١٩٨٦ م، صفحة ٩/٤١٨).

ولم يقتصر أثر العيني على زمنه، بل امتد إلى من بعده عبر نقل آرائه واختياراته في عدد من المصنّفات، كما يدل تعدد شيوخه وتلاميذه على رسوخ موقعه في شبكة العلم المملوكي. وقد أفاد منه تلاميذ كثيرون من طبقات ومذاهب مختلفة، ومن أشهرهم: ابن الهمام، وابن تغري بردي، والسخاوي؛ وهو ما يبرز امتداد تأثيره المؤسسي والعلمي في جيل واسع من الدارسين (الأزهري و تحقيق محمد باسل عيون السود، ٢٠٠٠ م، صفحة ١/٢٠١، ١/٦٦١، ٢/٩٨، ٢/١٨٥، ٢/٥٢٣).

أما آثاره العلمية فتمثل وجهًا آخر من وجوه تفرده؛ إذ خلف ترثًا كبيرًا في العربية والفقه والحديث والتاريخ، وعده معاصروه ومن جاء بعدهم من أكثر أهل عصره تصنيفًا. ومن أشهر كتبه في العربية: المقاصد النحوية، وفرائد القلائد، وملاحح الألواح، ورسائل الفئدة؛ كما برز في الفقه والحديث والتاريخ بمصنّفاتٍ صارت مراجع معتمدة في أبوابها (الزركلي، ٢٠٠٢ م، صفحة ٧/١٦٣).

وتوفي الإمام العيني سنة (٨٥٥هـ) بعد عمر حافلٍ بالتعليم والتصنيف، وترك أثرًا علميًا واسعًا يفسر استمرار حضوره في المدونات العربية والإسلامية (السخاوي، د.ت، صفحة ١٠/١٣٣).

## ثانيًا: الاتساع اللغوي:

يتأسس مفهوم الاتساع اللغوي في العربية على مبدأ جوهرية مؤداه أن اللغة لا تقف عند حدود الوضع الأوّل الجامد، بل تملك قدرةً داخليةً على توسيع الدلالة، وتحويل الوظائف، وإعادة توزيع العلاقات بين الألفاظ والتراكيب بما يوافق مقصد المتكلم وسياق الاستعمال. ومن ثمّ فإنّ الاتساع لا يُفهم بوصفه خروجًا عشوائيًا على القاعدة، بل بوصفه وجهًا من وجوه مرونة العربية، ومظهرًا من مظاهر حيويتها في التعبير (ابن فارس، ١٩٩٧ م، صفحة ١٩) (التوحيد و تحقيق مرسل فالح العجمي، ٢٠٠٥ م، صفحة ١/١٤٧).

الحمل على المعنى عند بدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ) دراسة نحوية دلالية

إن ظاهرة الاتساع ظاهرة عامة في العربية، شاملة لجميع مستويات اللغة، تتجاوزها فنون كثيرة نحوية، و صرفية، و صوتية، و دلالية، و بلاغية، كثرت هذه الظاهرة حتى صارت سمة، و ميزة انمازت بها العربية من بين اللغات كما ذكرنا أقوال علماء اللغة.

و تقوم فكرة الاتساع على أن ثمة أصلاً دلاليًا للفظ أو التراكيب، ينبثق منه دلالات جديدة، و ذلك بإدخال اللفظ أو التراكيب في علاقات جديدة، فالإتساع «خروج عن النمط المثالي في أصل الوضع» (الخطيب، ٢٠٠٦م، صفحة ٢/٤٧٣).

### الاتساع لغةً واصطلاحًا:

الاتساع لغةً: تدور معاني الاتساع و التوسع على مادة (وسع)، الذي بابه: وَسِعَ يَسَعُ سَعَةً، و يُقَالُ: وَسِعَ (بالضم)، وُسْعًا، و وَسَاعَةً، فهو وَسِيعٌ، و اتَّسَعَ كَوَسِعَ (الزنجشيري، ١٩٩٨، صفحة ٢/١٣٣).

ومادة (وسع) لا تخرج في المعاجم العربية عن المعاني الآتية: معنى الرّحابة و الفسحة (ابن سيده و تحقيق هنداي، ٢٠٠٠، صفحة ٢/٣٠٧)، الغنى و الرفاهية (ابن فارس و تحقيق هارون، ١٩٧٩، صفحة ٦/١٠٩)، الطّاقة و القدرة (أبو منصور الأزهري و تحقيق مرعب، ٢٠٠١، صفحة ٣/٦١).

أما اصطلاحًا، فالذي يظهر من صنيع العلماء قديمًا و حديثًا أن الاتساع: «مرونةٌ يُخْرَجُ بها الكلام عن حدود العلاقات المنطقية العادية التي هي قوام النّحو» (شبانة، ٢٠١١م، صفحة ٢٣)، أو هو: «استباحة الابتعاد عن الأصل، و الخروج عن القياس؛ لاعتبارات كثيرة تكتنف الموقف اللغوي» (شبانة، ٢٠١١م، صفحة ٢٣).

أو هو: «انزياح طارئ عن أصل المواضع؛ لأنّ المواضع ليست أبدية الإطلاق في ذاتها بالضرورة و اللزوم؛ إنها عقدٌ قد يُنْقَضُ، و قد يُنْقَحُ، و قد يبقى نافذ البنود» (شبانة، ٢٠١١م، صفحة ٢٣).

### الاتساع عند المتقدمين و المتأخرين:

حضر مفهوم الاتساع بوضوح في وعي المتقدمين، و إن تنوّعت ألفاظهم في التعبير عنه؛ إذ فسّر واه ظواهر لغوية متعددة، كالحذف، و التقديم و التأخير، و إقامة غير الأصل مقام الأصل، و الحمل على المعنى. و قد بدا ذلك عند سيبويه (سيبويه و تحقيق عبد السلام محمد هارون، ١٩٨٨م، صفحة ١/٢٤) في صلته بالإيجاز و الاختصار، ثمّ أفرد ابن السراج باب مستقل (ابن السراج، ١٩٩٦م، صفحة ٢/٢٥٥)، في حين بلغ المفهوم عند ابن جني درجةً أوسع حين جعله من دلائل (شجاعة العربية) و قدرتها على التصرف (ابن جني، ١٩٩٩م، صفحة ٢/٣٦٢) (الغول، ٢٠٠٨، صفحة ٣٥).

أما عند المتأخرين والمحدثين، فأتسع النظر إلى هذا المفهوم، فلم يعد مقصوراً على الشواهد النحوية، بل غدا مفسراً لحيوية اللغة وعلاقتها بالسياق والاستعمال (المسدي، ١٩٩٣ م، صفحة ١٦٣). فصار يُنظر إليه بوصفه أداة تحفظ حيوية اللغة، وتمنع جهودها، وتفسر علاقتها بالسياق والاستعمال الاجتماعي. ومن هنا ارتبط في الدراسات الحديثة بفكرة الانزياح الأسلوبي، بوصفه خروجاً دلاليّاً أو جماليّاً منضبطاً عن المؤلف اللغوي (فضل، ٢٠٠٩ م، صفحة ٢٠٩).

### الأتساع عند بدر الدين العيني:

تتأكد قيمة الأتساع في التطبيق حين تنتقل إلى بدر الدين العيني؛ إذ يظهر -في معالجته النحوية والدلالية- أنه لا يقف عند ظاهر البنية، بل ينفذ إلى المعنى الذي يوجّه الحكم ويكشف سرّ العدول. وأبرز صورة لذلك عنده هي الحمل على المعنى؛ فهو عند العيني ليس شذوذاً عن سنن العربية، وإنما مظهرٌ من مظاهر الأتساع اللغوي الذي تُراعى فيه دلالة الكلام وسياقه. ومن هذا المنظور أجاز العيني صوراً تطبيقية مثل: اكتساب المضاف التأنيث أو التذكير من المضاف إليه، واستعمال (مَنْ) لغير العاقل، ومخاطبة الواحد بلفظ الاثنين، ونيابة بعض حروف الجر عن بعض؛ لأنّ الجامع في هذه المواضع ليس ظاهر اللفظ وحده، بل المعنى الذي يستدعيه المقام (العيني و تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، ٢٠٠٨ م، صفحة ٤٣٤ / ٧، ١٠ / ١٧٩، ٢ / ٢٦٨، ٩ / ١٥٤، ٩ / ٢٢٦).

وتنبّه دراسة العيني إلى أنّ الأتساع ليس باباً منفصلاً، بل تحكمه قرائن دلالية وسياقية تمنع الفوضى في التأويل؛ فالمعنى عنده لا يهدم الأصل، وإنما يفسر مواضع العدول عنه، ويُبقي العلاقة بين القاعدة والاستعمال علاقة تكامل لا تعارض. ولهذا تُعدّ معالجة العيني شاهداً متأخراً على استمرار المفهوم التراثي للاتساع، مع تعميق جانبه الدلالي وإبرازه في التطبيق التحليلي.

### ثالثاً: الحمل على المعنى:

يُعدّ الحمل على المعنى من الظواهر اللغوية الدقيقة التي تكشف عن سعة العربية ومرورها في التصرف التعبيري، إذ لا يقتصر توجيه التركيب فيه على ظاهر اللفظ وبنية الشكلية، بل يتجاوز ذلك إلى مراعاة المعنى الذي ينهض به السياق ويقتضيه المقام. ومن ثمّ، فإنّ هذا الباب يقوم على إلحاق لفظٍ بمعنى لفظٍ آخر لوجود مناسبة دلالية بينهما، أو على إجراء الحكم النحوي على مقتضى المعنى دون الالتزام الحرفي بظاهر الصيغة؛ وبذلك يغدو الحمل على المعنى مظهرًا من مظاهر تجاوز البنية اللفظية إلى الدلالة العميقة التي تحكم انتظام الكلام وتوجّه وظائفه (ابن جني، ١٩٩٩ م، صفحة ٤١٧ / ٢) (العنكي، ٢٠١٢ م، صفحة ٣٠) (حسين، ١٩٩٦ م، صفحة ٢١٦).

وقد استرعى هذا الباب عناية علماء العربية منذ وقت مبكر؛ لما يتيح من تفسير عدد غير قليل من الظواهر التي يبدو ظاهرها خارجاً عن المألوف القياسي، في حين تكشف القراءة الدلالية العميقة عن انسجامها مع منطق العربية في الاستعمال. ومن أوائل من تنبّه إلى مركزية هذه الظاهرة ابن جني، إذ قال: «وقد شاع عنهم حمل ظاهر اللفظ على معنود المعنى وترك الظاهر إليه، وذلك كتذكير المؤنث، وتأنيث المذكر، وإفراد الجماعة، وجمع المفرد» (جني وتحقيق علي النجدي ناصف، وعبد الحلیم النجار، وعبدال، ١٩٩٤م، صفحة ١/١٤٥)، وتكشف هذه العبارة عن وعي مبكر بأن العربية لا تقف عند حدود المطابقة الشكلية الجامدة، بل تنسج مجالاً معتبراً لسلطان المعنى في توجيه البنية.

ولم يكتفِ ابن جني بالإشارة إلى هذه الظاهرة، بل أفرد لها موضعاً دالاً في حديثه عن خصائص العربية، فذكر في (باب شجاعة العربية) أئها: «غور من العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح، قد ورد به القرآن، وفضيح الكلام مثوراً ومنظوماً» (ابن جني، ١٩٩٩م، صفحة ٢/٤١٣). ولا يخفى ما في هذا التوصيف من دلالة على اتساع مجال الحمل على المعنى، وعمق حضوره في النصوص العربية الرفيعة، وفي مقدمتها القرآن الكريم، فضلاً عن الشعر والنثر الفصيحين. ثم زاد ابن جني هذا الباب إيضاحاً حين وصفه بقوله: «وباب الحمل على المعنى بحر لا يئنكش (ابن منظور، ١٤١٤هـ، صفحة ٦/٣٥٩)، ولا يفتج (ابن منظور، ١٤١٤هـ، صفحة ٢/٣٣٨)، ولا يغرض (ابن منظور، ١٤١٤هـ، صفحة ٧/١٩٤)، ولا يغضض (ابن منظور، ١٤١٤هـ، صفحة ٧/١٩٨)، وقد أريناك وجهه، ووكلنا الحال إلى قوة النظر وملاطفة التأويل» (ابن جني، ١٩٩٩م، صفحة ٢/٤٣٧). وهو توصيف ينهض شاهداً على خصوبة هذا الباب وتشعب فروعه، بما يجعله من أدق مسالك الدرس اللغوي وأشدّها افتقاراً إلى دقة التأمل وحسن الفهم.

وفي السياق نفسه، عقد ابن فارس باباً مستقلاً سمّاه باب الحمل، قال فيه: «هذا باب يترك فيه ظاهر لفظه؛ لأنّه محمول على معناه، ويقولون: ثلاثة أنفس، والنفس مؤنثة؛ لأنهم حملوه على الإنسان» (ابن فارس، ١٩٩٧م، صفحة ١٩٥). ويؤكد هذا النص أنّ العدول عن ظاهر اللفظ في العربية ليس خروجاً فوضوياً عن القاعدة، وإنما هو انتقال مضبوط إلى مقتضى المعنى، حين يكون هو الأرجح في توجيه الخطاب والأقوى في تحقيق الدلالة.

كما عدّ الثعالبي هذا الباب من سُنن العربية، فعقد له فصلاً بعنوان: (في حمل اللفظ على المعنى في تذكير المؤنث وتأنيث المذكر)، وقال: «من سُنن العرب ترك حكم ظاهر اللفظ، وحمله على معناه، كما يقولون: ثلاثة أنفس، والنفس مؤنثة، وإنها حملوه على معنى الإنسان، أو معنى الشخص» (الثعالبي وتحقيق عبد الرزاق المهدي، ٢٠٠٢م، صفحة ٢٣٠). وتكشف عبارة الثعالبي عن إدراك منهجي لطبيعة هذه الظاهرة، بوصفها

سنة استعمالية جارية في لسان العرب، وليست مجرد شواهد متفرقة أو وجوه نادرة لا يُقاس عليها في التحليل. ولم يكن هذا التوجه مقصوراً على هؤلاء، بل أكد أبو البركات الأنباري كثرة هذا الباب في كلام العرب، فقال بعد أن أورد عدداً من شواهد: "والحمل على المعنى أكثر في كلامهم من أن يحصى" (الأنباري وتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٢٠٠٣م) (الشاطبي وتحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ٢٠٠٧م، صفحة ٣/٢٦٠)، وهي شهادة ذات قيمة علمية كبيرة؛ لأنها تدل على شيوع الظاهرة في الاستعمال العربي من جهة، وعلى رسوخها في وعي النحاة من جهة أخرى. وكذلك أشار إليها ابن الأثير (ابن الأثير وعلي الدين، ١٤٢٠هـ، صفحة ٢/٤٩)، بما يعزز حضور هذا المفهوم في المدونة اللغوية والبلاغية، ويؤكد أن النظر إلى التركيب العربي من زاوية المعنى كان مسلكاً أصيلاً في التراث.

ويكتسب كلام صلاح الدين العلائي (ت ٧٦١هـ) أهمية خاصة في هذا السياق، إذ يقول: "ليس الحمل على المعنى، وتنزيل الشيء منزلة غيره قليلاً في كلامهم، وقد قالوا: زيداً ضربه، فأجازوا أن يكون الأمر في موقع الخبر؛ لأن المعنى: اضرب زيداً" (العلائي وتحقيق حسن موسى الشاعر، ١٩٩٠، صفحة ١٧٦). ويُفهم من هذا النص أن الحمل على المعنى لا يقتصر على ظواهر المطابقة في التذكير والتأنيث أو الأفراد والجمع، بل يمتد إلى البنية التركيبية نفسها، إذ تتدخل الدلالة في إعادة توجيه الوظائف النحوية، بما ينسجم مع المقصود التخاطبي ومقتضى البيان.

وعلى هذا الأساس، فإن الحمل على المعنى ليس ظاهرة جزئية محدودة التطبيق، بل هو باب واسع تنفرع عنه مسائل متعددة، من أبرزها: التذكير والتأنيث، ونيابة حروف المعاني بعضها عن بعض، والتضمين، والأفراد والتثنية والجمع، والعطف على اللفظ، والعطف على المعنى. وتندرج تحت كل واحد من هذه المحاور فروع دقيقة وصور متعددة، الأمر الذي يجعل الإحاطة بها جميعاً متعذرة في حدود بحث واحد. لذلك سيقصر هذا البحث على جملة من المسائل التي وردت عند بدر الدين العيني في مؤلفاته، بوصفها نماذج تطبيقية كاشفة عن كيفية اشتغال هذه الظاهرة في التحليل اللغوي عنده، وعن موقع المعنى في توجيه البنية النحوية ضمن تصوره العلمي:

## ١. اكتساب المضاف التأنيث من المضاف إليه.

تمثل مسألة اكتساب المضاف التأنيث من المضاف إليه إحدى الصور الدقيقة التي يتجلى فيها أثر المعنى في توجيه الحكم النحوي؛ إذ لا يُنظر فيها إلى صورة المضاف من حيث التذكير أو التأنيث فحسب، وإنما يُراعى ما بينه وبين المضاف إليه من صلة معنوية تبلغ حد التأثير في المطابقة الخبرية. ومن هنا تكتسب هذه المسألة أهميتها

في باب الحمل على المعنى؛ لأنها تكشف عن أن العربية لا تقف عند ظاهر البنية، بل تتجاوزها إلى مقتضى الدلالة التي ينهض بها التركيب في سياقه.

وقد مثل العيني لهذه الظاهرة بقوله في توجيه الشاهد الشعري:

قال العيني في توجيه الشاهد الشعري: (العيني و تحقيق علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وع، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، ٢٠١٠م، صفحة ٣/ ١٢٩٥)

«أَيُّ الْفَوَاحِشِ عِنْدَهُمْ مَعْرُوفَةٌ  
وَلَدَيْهِمْ تَرْكُ الْجَمِيلِ جَمَالٌ»

قوله: (أي): أي: إتيان الفواحش، وهو كلام إضافي ومبتدأ، وخبره قوله: (معروفة) وإنما أتت الخبر لكون المبتدأ اكتسب التأنيث من المضاف إليه، قوله (معروفة) مؤنثة مع أنها خبر لقوله (أي الفواحش) والآتي مذكر؛ وذلك لأنه اكتسب التأنيث من المضاف إليه المؤنث وهو الفواحش» (العيني و تحقيق علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وع، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، ٢٠١٠م، صفحة ٣/ ١٢٩٥). يكشف هذا التوجيه عن أن العيني لا يقف عند ظاهر اللفظ في الحكم على المطابقة، بل ينفذ إلى العلاقة الدلالية التي جعلت المضاف، مع كونه مذكراً في الأصل، جارياً مجرى المؤنث لاتصاله بمضاف إليه مؤنث اتصالاً أفاد هذا الحكم.

والأصل - في الخبر - أن يطابق المبتدأ في التذكير والتأنيث كما يطابقه في الأفراد والتثنية والجمع، غير أن هذا الأصل قد يتسع فيه إذا كان المبتدأ تركيبياً إضافياً يقوم فيه المضاف إليه مقام العنصر المؤثر في توجيه المعنى. ومن ثم جاء الإخبار عن (أي) - وهو مذكر في لفظه - بقوله: (معروفة)، مراعاةً للمضاف إليه المؤنث (الفواحش)، لا على سبيل العدول المجازي عن القاعدة، بل على سبيل الحمل على المعنى الذي سوّغه الاستعمال العربي وقرره النحاة. وهذا يدل على أن اكتساب المضاف التأنيث من المضاف إليه ليس خروجاً على النظام، وإنما هو توسيع مشروع في حدود ما تسمح به البنية والمعنى معاً. غير أن هذا الباب ليس مطرداً في جميع صور الإضافة، ولذلك قيده النحاة بجملة من الشروط التي تمنع التوسع غير المنضبط. وقد نصوا على أن المضاف قد يكتسب التأنيث من المضاف إليه إذا كان بعضاً منه، أو كان في حكم بعض، أو كان وصفاً له، أو شبيهاً بما هو بعض منه (المرادي و تحقيق عبد الرحمن علي، ٢٠٠٨، صفحة ٢/ ٧٩٣)، وهذه الشروط تدل على أن العلاقة بين الطرفين ليست علاقة شكلية محضة، وإنما هي علاقة معنوية قوية تجعل حذف المضاف - في بعض المواضع - غير مخل بالمقصود العام، أو تجعل المضاف تابعاً في دلالاته للمضاف إليه على نحو يسمح بانتقال الحكم إليه.

وأشار سيبويه إلى هذه الظاهرة في سياق تقريره للاستعمال العربي، فقال: ”وربما قالوا في بعض الكلام:

ذهبت بعض أصابعه، وإنما أنت البعض؛ لأنه أضافه إلى مؤنث هو منه، ولو لم يكن منه لم يؤنثه؛ لأنه لو قال: ذهبت عبد أمك لم يحسن" (سيبويه وتحقيق عبد السلام محمد هارون، ١٩٨٨م، صفحة ٥١ / ١). وتكشف عبارة سيبويه عن ضابط دقيق في هذا الباب، وهو أن التأنيث لا ينشأ من مجرد المجاورة اللفظية بين المضاف والمضاف إليه، بل من كون المضاف جزءاً من المضاف إليه أو متصلاً به اتصالاً معنوياً وثيقاً؛ ولذلك فرق بين ما يصح فيه هذا الحمل وما لا يصح، تأسيساً على معيار المعنى لا على مجرد الصورة الإعرابية.

وفي الاتجاه نفسه، قرّر الفراء أن العرب قد تُجيز في هذا الموضع التأنيث والتذكير معاً، يقول: "والعرب إذا أضافت المذكر إلى المؤنث وهو فعل له أو بعض له قالوا فيه بالتأنيث والتذكير" (الفراء وتحقيق أحمد يوسف ومحمد علي، د.ت.، صفحة ٣٦ / ٢)، ثم علّل هذا الجواز بقوله: "وإنما جاز هذا كله؛ لأنّ الثاني يكفني من الأول، ألا ترى أنّه لو قيل: تلتقطه السّيارة، فجاز وكفى من (بعض)، ولا يجوز أن يقول: قد ضربني غلام جاريتك؛ لأنّك لو ألغيت الغلام لم تدل الجارية على معناه" (الفراء وتحقيق أحمد يوسف ومحمد علي، د.ت.، صفحة ٣٧ / ٢). ويظهر من هذا النص أن مناط الجواز عند الفراء هو إمكان استغناء المعنى بالمضاف إليه عن المضاف، أو كفاية الثاني في الدلالة على المقصود إذا حذف الأول، وهو ما يؤكد مرة أخرى أنّ أساس هذه المسألة دلالي قبل أن يكون صناعياً.

وعلى هذا الأساس، يتبيّن أنّ للمعنى دوراً حاكماً في اكتساب المضاف التأنيث من المضاف إليه؛ إذ لم يجز النحاة هذا الاستعمال إلا إذا كانت بين الطرفين رابطة تجعل المضاف غير مستقل تمام الاستقلال في الدلالة، بل قابلاً لأن يتأثر بالمضاف إليه في حكمه. ومن هنا اشتهر أن يكون المضاف بعض المضاف إليه أو كالبعض منه، وأن يصح الاستغناء عنه من غير فساد جوهري في المعنى. وقد بلغ هذا المعنى عند بعض النحاة درجة جعلت المبرد يذهب إلى أن المضاف قد يُقحم للتوكيد؛ لأنه خارج من المعنى (المبرد وتحقيق محمد أبو الفضل، ١٩٩٧، صفحة ١٠٥ / ٢)، وتابعه - في ذلك - الهروي (الهروي وتحقيق عبد المعين الملوحي، ١٩٧١، صفحة ٨٠). وهذا الرأي - وإن بدا في ظاهره متشددًا - ينهض شاهداً على مدى مركزية المعنى في تفسير هذا الباب، وعلى أنّ الإضافة هنا ليست مجرد بناء تركيبى، بل علاقة دلالية فعّالة تؤثر في توجيه الحكم النحوي.

ومن ثمّ، فإن اكتساب المضاف التأنيث من المضاف إليه يعدّ صورة واضحة من صور الحمل على المعنى عند العيني؛ لأنه يقوم على تغليب الدلالة المعنوية للمضاف إليه على الصفة اللفظية للمضاف، بما يفضي إلى إعادة ترتيب علاقة المطابقة داخل الجملة. وبهذا يظهر أن العيني - في تعامله مع هذه الظاهرة - لا ينحاز إلى ظاهر الصناعة وحدها، بل يوازن بين مقتضى القاعدة ومقتضى المعنى، وهي موازنة تمثل - في حقيقتها - أحد أبرز مظاهر الاتساع اللغوي في العربية.

## ٢. اكتساب المضاف التذكير من المضاف إليه:

تُعَدُّ مسألة اكتساب المضاف التذكير من المضاف إليه من الظواهر الدقيقة التي يتجلى فيها سلطان المعنى على ظاهر البنية؛ إذ قد يردُّ المضاف مؤنثاً في لفظه، ثم يُعامَل معاملة المذكر في الخبر أو الوصف؛ لا لعدولٍ اعتباري عن القياس، بل لتأثره بالمضاف إليه المذكر تأثراً ينعض به المعنى ويعضده الاستعمال. ومن ثم، فإن هذه الصورة تمثل وجهاً آخر من وجوه الحمل على المعنى، غير أنها أقل شيوعاً من صورة اكتساب المضاف التأنيث من المضاف إليه، الأمر الذي يجعلها أحقَّ بالتأمل والتحليل في ضوء الشواهد والتوجيهات النحوية، وقد مثل العيني هذه الظاهرة بقوله في توجيه الشاهد الشعري: (العيني وتحقيق علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وع، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، ٢٠١٠م، صفحة ٣/١٣١٨)

”إِنَارَةُ الْعَقْلِ مَكْسُوفٌ بِطُوعِ هَوَى وَعَقْلٌ عَاصِي هَوَى يَزْدَادُ تَنْوِيرًا

قوله: (إنارة العقل) كلام إضافي مبتدأ، وقوله: (مكسوف) خبره، وفيه تذكير المؤنث، وهو قوله (مكسوف)، وكان القياس (مكسوفة)، وإنما ذكر المؤنث ههنا مع أنه خبر عن المؤنث، وهو قوله: (إنارة العقل)؛ لأنَّ المضاف اكتسب التذكير من المضاف إليه“ (العيني وتحقيق علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وع، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، ٢٠١٠م، صفحة ٣/١٢١٨). ويكشف هذا التوجيه عن أنَّ العيني ينظر إلى التركيب الإضافي نظراً دلاليّاً لا شكليّاً فحسب؛ إذ رأى أنَّ المضاف المؤنث، وهو (إنارة)، قد تأثر بالمضاف إليه المذكر، وهو (العقل)، حتى جرى الخبر عليه بصيغة التذكير، فكان الاعتبار في ذلك للصلة المعنوية الوثيقة بين طرفي الإضافة. إذ اكتسب المضاف المؤنث (إنارة) التذكير من المضاف إليه المذكر (العقل)، بدليل الإخبار عنه بقوله: (مكسوف)، وهذا أقل من تأنيث المذكر في المسألة آنفة الذكر، ومن هذا القبيل قوله تعالى: {فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} [الشعراء: ٤]، ولم يقل خاضعات؛ لأنَّ الإضافة اكتسب التذكير من المضاف إليه وهو الضمير في (أعناقهم) (البغدادي وتحقيق عبد السلام هارون، ١٩٨٩، صفحة ٧/١٠١).

ونبه أبو حيان إلى هذا المعنى تبييناً دقيقاً، فقال: «وكما يكتسي منه تأنيثاً كذلك يكتسي المضاف المؤنث من المضاف إليه تذكيراً... وهذا قليل، والأفصح التأنيث، وإنما جاز ذلك لشدة اتصال المضاف بالمضاف إليه» (الأندلسي وتحقيق علي وأحمد وعبد العزيز، ٢٠١٣، صفحة ١٤٣).

تكمن أهمية هذا النص في أنه يوازن بين الجواز والاستعمال الأفصح؛ فهو لا ينفي صحة هذا الوجه، ولكنه يجعله دون التأنيث في الرتبة من حيث الفصاحة والكثرة. كما أن تعليقه الجواز بشدة اتصال المضاف بالمضاف إليه يكشف بوضوح أن مناط الحكم هنا دلالي تركيبى، لا صورتى محض.

ويتصل بهذا ما ذكره ابنُ الوردِي (ت ٧٤٩هـ) من أنَّ المضاف: «ربما اكتسب المضاف من المضاف إليه تأنيهاً، إن كان الثاني مؤنثاً، وتذكيراً إن كان الثاني مذكراً، بشرط صلاحية المضاف للحذف» (ابن الوردِي و تحقيق عبد الله بن علي، ٢٠٠٨، صفحة ٣٨٣ / ٢)، وهو الشرط نفسه الذي أشار إليه ابن هشام، ثم أوضحه خالد الأزهرِي بقوله: «وشرط ذلك في الصورتين صلاحية المضاف للاستغناء عنه عند سقوطه بالمضاف إليه مع صحة المعنى في الجملة» (الأزهرِي و تحقيق محمد باسل عيون السود، ٢٠٠٠م، صفحة ٦٨٧ / ١).

ويستفاد من هذه النصوص أن النحاة لم يتركوا هذا الباب منفتحاً من غير قيد، بل ضبطوه بشرط جوهرِي، هو إمكان سقوط المضاف مع بقاء المعنى مستقيماً أو قريباً من الاستقامة؛ لأن هذا الشرط يدل على أنَّ المضاف ليس مقصوداً لذاته في الحكم، بل إنَّ المضاف إليه هو العنصر الأقوى في توجيه الدلالة.

وعلى هذا الأساس، يتبين أن اكتساب المضاف للتذكير من المضاف إليه ليس مجرد مسألة شكلية في المطابقة، وإنما هو مظهر من مظاهر التفاعل العميق بين البنية والمعنى في العربية؛ إذ تتراجع فيه سلطة الظاهر اللفظي حين يقوى مقتضى الدلالة، ويتقدم فيه الاعتبار المعنوي بوصفه مرجحاً للحكم النحوي. ومن هنا أمكن عد هذه الظاهرة عند العينِي شاهداً على منهجه في الموازنة بين الصناعة والمعنى، وعلى وعيه بأن الاتساع اللغوي لا يقوم على الإفلات من القاعدة، بل على توجيهها في ضوء ما ينهض به المقام من دلالة.

### ٣. إطلاق (مَنْ) على غير العاقل

تُعَدُّ مسألة إطلاق (مَنْ) على غير العاقل من المواضع الدالة على سعة العربية في مراعاة المعنى، إذ إن الأصل في (مَنْ) أن تستعمل لمن يعقل، غير أن الاستعمال العربي قد يتجاوز هذا الأصل إذا وُجِدَت قرينة معنوية تسوّغ نقل غير العاقل إلى منزلة العاقل، أو إدخاله في حكمه. ومن ثم، فإن هذه الظاهرة تمثل وجهاً واضحاً من وجوه الحمل على المعنى؛ لأن الاعتبار فيها لا يكون لذات المرجع في حقيقته الخارجية، بل للصورة الدلالية التي ينهض بها في السياق. وقد مثل العينِي لذلك بقوله في توجيه الشاهد الشعري (مجنون ليل و تحقيق يسرى عبد الغني، ١٩٩٩، صفحة ٩٧):

«أَيْرَبَ الْقَطَا هَلْ مِنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ  
لَعَلِّي إِلَى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أُطِيرُ»

أطلق (مَنْ) على غير العاقل في قوله: (هل من يعير جناحه)؛ وذلك لما نادى سرب القطا، كما ينادى العاقل وطلب منها إعادة الجناح لأجل الطيران نحو محبوبه، الذي هو مشوق إليه وبالك لأجله، نزلها منزلة العقلاء (العينِي و تحقيق علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وع، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، ٢٠١٠م، صفحة ٣٩٧ / ١). ويظهر من هذا التوجيه أن العينِي بنى حكمه على جهة المعنى؛ لأنَّ

الحمل على المعنى عند بدر الدين العينِي (ت ٨٥٥هـ) دراسة نحوية دلالية

الشاعر لم يعامل سرب القطا معاملة الجهاد أو الحيوان غير المدرك، بل خاطبه خطاب من يُرجى منه الجواب والإعانة، فسوّغ ذلك مجيء (مَنْ) في موضعها (الزبيدي، ١٩٩٦، صفحة ١٦٤).

وإذا كان الأكثر في الاستعمال أن تدل (مَنْ) على العاقل، كما في قوله تعالى: {وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} [الرعد: ٤٣]، فإن العربية قد تتسع فيها فتستعملها لغير العاقل متى وُجد مسوّغ دلالي معتبر. وقد أشار النحاة إلى أن هذا الاستعمال لا يقع على سبيل الإطلاق، بل تحكمه شروط معلومة، من أهمها: أن يُنزل غير العاقل منزلة العاقل، نحو قوله تعالى: {مَنْ لَأَيُّسْتَجِيبُ لَهُ} [الأحقاف: ٥]، جاءت (مَنْ) لغير العاقل؛ لأنّ الذي يدعونه من دون الله لا يعقل شيئاً ولكن لما اتخذ المشركون إلهًا، نزلوه منزلة العاقل، أو أن يقترن غير العاقل مع من يعقل في عموم يشملهما جميعًا، نحو قوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ} [النور: ٤٥] [المرادي وتحقيق عبد الرحمن علي، ٢٠٠٨، صفحة ١/٤٢٨]، فقوله: {مَنْ يَمْشِي عَلَى بطنه} و{مَنْ يَمْشِي عَلَى أربع} وفقه (مَنْ) على غير العاقل، والذي جوّز ذلك اقتراً غير العاقل بالعاقل في عموم وهو قوله: (كل دابة) التي تشمل العاقل وغير العاقل، ثم فصل بـ (من)، قال الزمخشري: «لما كان اسم الدابة موقعا على المميز وغير المميز، غلب المميز فأعطي ما وراءه حكمه، كأنّ الدوابّ كلهم مميزون، فمن ثمة قيل: فمنهم، وقيل: من يمشي، في الماشي على بطن، والماشي على أربع قوائم» (الزمخشري م.، ١٤٠٧هـ، صفحة ٣/٢٤٦)، أو أن يجتمع العاقل وغير العاقل في سياق واحد فيغلب أحدهما الآخر في الحكم، كما في قوله تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ} [النحل: ١٧]، لشموله الآدميين والملائكة والأصنام، وقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ} [الحج: ١٨]، فوَقعت (مَنْ) على من لا يعقل، والذي سوّغ ذلك اجتماع العاقل مع غير العاقل؛ لأنّ مَنْ في السَّمَوَاتِ يَشْمَلُ الملائكةَ والشَّمْسَ والقمرَ والنُّجُومَ وغيرها، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ يَشْمَلُ الآدميين والجبال والشجر وغير ذلك (الأنصاري وتحقيق محمد محيي الدين، د.ت.، صفحة ١/١٥٢).

وعلى هذا الأساس، فإن إطلاق (مَنْ) على غير العاقل عند العيني لا يُفهم على أنّه عدول عارض عن الأصل، وإنما يُفهم بوصفه استعمالاً مؤسساً على قرائن دلالية تجعل غير العاقل في حكم العاقل، أو تجعله داخلاً في عموم يقتضي هذا اللفظ. وبذلك تتأكد صلة هذه المسألة بالحمل على المعنى؛ لأنّ اللفظ فيها خضع لمقتضى الدلالة والسياق، لا لمجرد التقسيم المنطقي بين العاقل وغير العاقل.

#### ٤. مخاطبة الواحد بلفظ الاثنين

تعدُّ مخاطبة الواحد بلفظ الاثنين من الأساليب التي تكشف عن سعة العربية في التصرف التعبيري، وعن مرونة البنية الخطابية حين يتجاوز الاستعمال ظاهر العدد إلى ما يقتضيه المقام من دلالة. والأصل أن يُخاطَب

الواحد بصيغة الأفراد، غير أن العرب قد تعدل عن هذا الأصل إلى صيغة التثنية، لا على سبيل الاضطراب في الاستعمال، بل على سبيل الاتساع الذي يسوّغه المقصد البلاغي ويعضده السماع الفصيح. ومن ثمّ، فإن هذه الظاهرة تُعدّ وجهًا من وجوه الحمل على المعنى؛ لأن الاعتبار فيها لا يكون لظاهر المخاطب وحده، بل لما ينهض به المقام من معنى يبرر هذا العدول الأسلوبي. وقد مثل العيني لذلك بقوله في توجيه الشاهد الشعري (البغدادي وتحقيق عبد السلام هارون، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ١٩٩٧، صفحة ٨/٢٨):

«دَعَايَ مِنْ نَجْدٍ فَإِنَّ سِنِينَهُ  
لَعَيْنَ بِنَا شَيْبًا وَشَيْبِنَا مُرْدًا

قوله: (دعائي) أي: اتركاني، يخاطب خليليه، ومن عادة العرب أنّهم يخاطبون الواحد بصيغة التثنية، كما في قول امرئ القيس: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل (امرؤ القيس، ١٩٩٠، صفحة ٨).

فإن (قفا) صيغة تثنية يخاطب بها الواحد، وكذلك ههنا (دعائي) صيغة تثنية يخاطب بها الواحد وهو صاحبه و خليليه» (العيني وتحقيق علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وع، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، ٢٠١٠م، صفحة ١/٢١٧). ويظهر من هذا التوجيه أنّ العيني يقرر هذه الظاهرة على أنّها عادة جارية في كلام العرب، لا استعمال طارئ، وأن صيغة التثنية قد ترد في موضع الأفراد إذا اقتضى ذلك الأسلوب ومقام الخطاب.

وبيّن العيني في موضع آخر أنّ هذا الأسلوب يتجلى كذلك في قوله تعالى: {الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ} [ق: ٢٤]، وذكر أنّ الغاية منه ترجع إلى معنى التكرار والتوكيد، فكأنّ المعنى: ألقِ ألقِ، وبذلك يكون الخطاب قد خرج من ظاهر التثنية إلى وظيفة دلالية أعمق، هي تقوية الأمر وتأكيده (العيني وتحقيق علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وع، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، ٢٠١٠م، صفحة ١/٤٠٦)، وهذا يدل على أنّ مخاطبة الواحد بلفظ الاثنان ليست مجرد ظاهرة عددية، بل هي أداة أسلوبية تتصل بتكثيف المعنى وتقوية النبرة الخطابية، وهو ما يجعلها من سنن العربية في باب الحمل على المعنى (الشعالبي وتحقيق عبد الرزاق المهدي، ٢٠٠٢م، صفحة ٢٢٨).

وقد عبّء النحاة هذا الفهم، فنقل عن الخليل والأخفش قولهما: "هذا كلام العرب الصحيح، أنّ مخاطب الواحد بلفظ الاثنان، وهو جيدٌ حسن، فيقول: ويلك أرحلاها، وازجراها، وخذاها، واطلقاه" (القرطبي وتحقيق أحمد البردوني، ١٩٦٤، صفحة ١٧/١٦). كما علّل الفراء ذلك بأن أصل هذا الاستعمال ناشئ من جريان خطاب الواحد على ما اعتيد في مخاطبة الاثنان في بعض المقامات، ثم استقر في الشعر واللسان العربي الفصيح، إذ قال: "وأصل ذلك إذا دنا أعوان الرّجل في إبله وغنمه وبقره اثنان فجرى الواحد على صاحبيه،

ومنه قولهم للواحد في الشعر: خليلي ثم يقول (يا صاح)“ (الفراء و تحقيق أحمد يوسف ومحمد علي، د.ت.، صفحة ٧٨ / ٣)، ثم استشهد بقول امرئ القيس أنف الذكر.

وعلى هذا الأساس، فإن مخاطبة الواحد بلفظ الاثنين تمثل عند العيني صورة من صور الحمل على المعنى؛ لأن اللفظ فيها لم يَحْمَل على ظاهر العدد، بل على ما يقتضيه السياق من توكيد أو تكرار أو جريان على سنن العرب في خطابهم.

### ٥. نيابة حروف الجر بعضها عن بعض:

تُعَدُّ نيابة حروف الجر بعضها عن بعض من الظواهر الدالة على سعة العربية ومرونة نظامها الدلالي؛ إذ الأصل أن يكون لكل حرف معنى خاص به يختص به في أصل الوضع، غير أن الاستعمال العربي قد يعدل عن هذا الأصل فيقام حرف مقام حرف آخر إذا تقاربت المعاني أو اقتضى السياق هذا التوسع. ومن ثم، فإن المراد بنيابة حروف الجر: وضع حرف مكان حرف، أو استعمال حرف بمعنى حرف آخر (السامرائي، ٢٠٠٠، صفحة ٣٠ / ٤).

إن هذه الظاهرة وثيقة الصلة بالحمل على المعنى؛ لأن الحرف فيها لا يبقى محصوراً في دلالة الأولى، بل يتجه إلى معنى آخر تحكمه القرينة ويُسوِّغه المقام. وقد عُدَّ هذا الباب ضرباً من الاتساع، كما قال ابن السراج: «واعلم أن العرب تتسع فيها فتقيم بعضها مقام بعض» (ابن السراج، ١٩٩٦م، صفحة ١ / ٤١٤)، وأجازها ابن جني في موضع من دون موضع بحسب الأحوال الداعية إليه (ابن جني، ١٩٩٩م، صفحة ٢ / ٣١٠).

وانقسم النحاة في جواز هذه المسألة قسمين:

أحدهما: مذهب البصريين، إذ يرون أن حرف الجر باقٍ على معناه الأصلي، ولا ينوب بعضها عن بعض بقياس، كما لا تنوب حروف الجزم والنصب بعضها عن بعض، وما خالف ذلك إمّا مؤول عندهم تأويلاً يقبله اللفظ، وإمّا على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف، وإمّا على الشذوذ (السيوطي و تحقيق عبد الحميد هندراوي، د.ت، صفحة ٥٣٦).

والآخر: مذهب الكوفيين، إذ يرون جواز نيابة حروف الجر عن بعضها قياساً بحسب الوضع اللغوي، أي إن الحرف الواحد وُضع لأكثر من معنى (المرادي و تحقيق فخر الدين قباوة، ١٩٩٢، صفحة ٤٦) (الأنصاري و تحقيق محمد محيي الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، د.ت، صفحة ١٥١).

والذي يظهر أن لدلالات الألفاظ وللسياق اللغوي الذي ترد فيه حروف الجر التي تقوم بدور الربط بين

أجزاء التركيب دوراً كبيراً في تعاور معاني حروف الجر، فينوب بعضها عن بعض عندما تتقارب معانيها كما ذكر ابن السراج أنّ الحروف يُقام «بعضها مقام بعض إذا تقاربت المعاني في ذلك: الباء، تقول: فلان بمكة وفي مكة» (ابن السراج، ١٩٩٦م، صفحة ١/٤١٤).

ولذلك علّل ابن هشام أنّ مذهب الكوفيين أقلّ تعسفاً (الأنصاري و تحقيق محمد محيي الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، د.ت، صفحة ١٥١).

فللمعنى دورٌ في تناوب حروف الجر؛ لأنّ الاتّساع في المعاني يقابله اتّساع في الوظائف النحوية، على أنّ الاتّساع في المعاني أسبق في الاستخدام بطبيعة الحال؛ لأنّ التقعيد خطوة تالية على رصد الاستخدام (الرمالي، ١٩٩٦، صفحة ١١٥).

ويتبيّن مما سبق أنّ لكل حرف معنى خاصاً به، ويدلّ عليه، وقد يُتوسّع فيه فيستعمل في معانٍ آخر، أو قد يجل محل حرفٍ ثانٍ.

وذكر العيني جملة من حروف الجر نابت بعضها عن بعض، منها:

أولاً: الباء - حرف جر يأتي على أوجه، منها:

الإلصاق، والاستعانة، والسببية، والمصاحبة، والظرفية، والتبعية، والقسم، والاستعلاء، وزائدة، وقد أوصلها بعضهم إلى اثني عشر وجهاً (الأنصاري و تحقيق محمد محيي الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، د.ت، صفحة ١٣٧).

وذكر العيني أنّ الأصل في الباء إنّها هو للإلصاق، ولكن يُتوسّع فيها فتأتي لمعانٍ أخرى، كالقسم، ويرى العيني أنّ حقيقة باء القسم هو إلصاق معنى القسم بالاسم المقسم به، أو تأتي عنده أيضاً للاستعانة نحو: كتبت بالقلم، وتأتي للمصاحبة، نحو: دخلت عليه بثياب السفر، أي: معها، وفرّق العيني بين الباء التي للمصاحبة وبين (مع)، فذكر أنّ (مع) لإثبات المصاحبة ابتداءً، والباء لاستدامتها، وذكر أنّها تأتي زائدة في المنصوب كقوله تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ} [البقرة: ١٩٥]، وفي المرفوع نحو: كَتَبَ بِرَبِّهِ الرَّحْمَنُ، أي: كفى الله (العيني ب.٥، ٢٠٠٨، صفحة ٢٣).

ومثال مجيئها بمعنى الظرفية عند العيني قوله في تخريج الشاهد: (العيني و تحقيق علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وع، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، ٢٠١٠م، صفحة ١/٢١٠)

## تَلَاعَبَ الرَّيْحُ بِالْعَصْرَيْنِ فَسَطَلَهُ وَالْوَابِلُونَ وَتَهْتَانُ التَّجَاوِيدِ

قوله: (بالعصرين) أراد بها الغداة والعشي، والباء ظرفية تتعلق بتلاعب، أي: في العصرين (العيني و تحقيق علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وع، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، ٢٠١٠م، صفحة ١/ ٢١٤) (العيني ب.، ٢٠٠٨، صفحة ٢٣).

وتأتي الباء بمعنى (على)، واستدل على ذلك بقول الشاعر (البغدادى و تحقيق عبد السلام هارون، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ١٩٩٧، صفحة ٧/ ٢١٤):

## أَمَا وَدِمَاءٍ مَا تَرَاتِ تَحَالُهَا عَلَى قُنَّةِ الْعُرَى وَبِالنَّسْرِ عِنْدَمَا

يقول: «قوله: (وبالنسر) الباء فيه بمعنى على، أي: وعلى النسر، أي: وعلى قنّة النسر، والباء تجيء بمعنى على كما في قوله تعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ} [آل عمران: ٧٥]، أي: على قنطار» (العيني و تحقيق علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وع، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، ٢٠١٠م، صفحة ١/ ٤٦٩).

وتأتي الباء بمعنى عن، وبها خرج العيني حديث عروة عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: «كان رسول الله يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى أن ينصدع الفجر... فإذا سكّت المؤذن بالأولى من صلاة الفجر...» (العيني ب.، شرح سنن أبي داود، ١٩٩٩، صفحة ٣/ ٤٩٧).

قوله: (بالأولى) بمعنى (عن) كقوله تعالى: (فاسأل به خبيراً) أي: عنه» (العيني ب.، شرح سنن أبي داود، ١٩٩٩، صفحة ٥/ ٢٤٢).

وتأتي بمعنى (إلى)، ومثاله عند العيني قوله في تخريج حديث النبي ﷺ: «فإني أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين». (البخاري و تحقيق محمد زهير، ١٤٢٢هـ، صفحة ١/ ٨)

قوله: «(بدعاية الاسلام) الباء بمعنى (إلى)، وجوّزت النُّحاة إقامة حروف الجر بعضها مقام بعض، أي: أدعوك إلى الاسلام» (العيني ب.، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، د.ت، صفحة ١/ ٩٣).

وعليه يمكن القول: إنّ نيابة حروف الجر عند العيني تمثل صورة واضحة من صور الحمل على المعنى؛ إذ تتقدّم فيها القرينة الدلالية على الجمود الشكلي، ويغدو المعنى هو الوجه الأساس لاختيار الحرف ووظيفته في السياق.

ثانياً: علي: حرف جر مشترك بين الاسمية والحرفية، والأصل فيه الاستعلاء، وله معانٍ عديدة. قال العيني: «(علي) وهي للاستعلاء، نحو: زيدٌ على السطح، وهي تارة تكون اسماً مضافاً، نحو: قول الشاعر (العيني) وتحقيق علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وع، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، ٢٠١٠م، صفحة ٣/٢٤٠):

عَدْتُ مَنْ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا تَمَّ ظِمُّهَا ...

أي: مَنْ أعلاه إذ لو كان حرفاً لما دخله الجار» (العيني ب.، وسائل الفئدة في شرح العوامل المائة، ٢٠٠٨، صفحة ٢٥).

وذكر ابن هشام أنّ لها وجهين: الأول: أن تكون حرفاً، والثاني: أن تكون اسماً بمعنى (فوق)، إذا دخلت عليها (مَنْ)، ولها تسعة معانٍ: الاستعلاء وهو الغالب، والمصاحبة، والمجازة كعن، والتعليل كاللام، والظرفية، وموافقة (مَنْ)، وموافقة (البا)، وزائدة للتعويض، والاستدراك (الأنصاري) وتحقيق محمد محيي الدين، معني اللبيب عن كتب الأعراب، د.ت، صفحة ١٨٩).

ومن معانيها عند العيني:

(علي) بمعنى (مَنْ)، قال العيني في شرح حديث أبي سعيد الخدري، عن أبيه (رضي الله عنهما)، أن رسول الله ﷺ قال: «الْعُسْلُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ عَلَى كُلِّ مَحْتَلَمٍ، وَالسُّوَاكُ، وَيَمْسُ مِنَ الطَّيِّبِ مَا قَدَّرَ لَكَ» (مسلم وتحقيق محمد فؤاد، ١٩٥٥، صفحة ٢/٥٨١). «قوله: (علي كل محتلم) يجوز أن تكون (علي) ههنا بمعنى (مَنْ) نحو قوله تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ} [المطففين: ٢]، ويكون المعنى: الغسل يوم الجمعة من كل محتلم مستحب أو فضله» (العيني ب.، شرح سنن أبي داود، ١٩٩٩، صفحة ٢/١٦٤). وهذا المعنى صرح به النحويون كالمرازي وابن هشام (المرازي) وتحقيق فخر الدين قباوة، ١٩٩٢، صفحة ٤٧٨) (الأنصاري) وتحقيق محمد محيي الدين، معني اللبيب عن كتب الأعراب، د.ت، صفحة ١٩١).

وتأتي (علي) بمعنى (عن) أي: المجاوزة، قال العيني: «ومثالها قول الشاعر: (المبرد) وتحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، ١٩٩٤، صفحة ٢/٣٢)

إِذَا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْرٍ  
لَعَمْرُ اللَّهِ أَعْجَبَنِي رِضَاهَا

قوله: (علي) فإن (علي) فيه بمعنى (عن)، وهذا جارٍ في لسان العرب. ونقل العيني قول المبرد: وبنو كعب بن ربيعة يقولون: رضي الله عليك، أي: عنك.

وتأتي (على) بمعنى (مع) أي: المصاحبة، قال العيني في قول الشاعر: (سيبويه و تحقيق عبد السلام محمد هارون، ١٩٨٨ م، صفحة ٤ / ٢٢٢)

وَرَجَّحَ الْفَتَى لِلْخَيْرِ مَا إِنْ رَأَيْتَهُ  
عَلَى السَّنِّ خَيْرًا لَا يَزَالُ يَزِيدُ

قوله: (على السَّنِّ) يجوزُ أَنْ تكونَ (على) بمعنى (مع): أي: لا يزال يزيد خيراً مع زيادة سنه» (العيني و تحقيق علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وع، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، ٢٠١٠ م، صفحة ٢ / ٥١٩).

ثالثاً: إلى: قال العيني: «كلمة (إلى) وهي لانتهاء الغاية نحو: سرتُ من البصرة إلى الكوفة، تريد أن ينتهي السير هو الكوفة، وقد تكون بمعنى المصاحبة، نحو: قوله تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ} [النساء: ٢]... ف (حتى) في معناها، ولكنها تفارقها من وجوه كثيرة، والفارق بينها أن (إلى) تدخل على المظهر والمضمر نحو: إلى زيد وإليه، و (حتى) لا تدخل إلا على المظهر استعمالاً، فلا يقال: حتاهُ، وما ورد فهو شاذ» (العيني ب.، وسائل الفئدة في شرح العوامل المائة، ٢٠٠٨، صفحة ٢٤).

(إلى) حرف جر، الأصل فيه أن يكونَ لانتهاء الغاية، نحو: قوله تعالى: {وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ} [النمل: ٣٣]، أي: منتهِ إليك: قال سيبويه: «وأماً (إلى) فمنتهى الابتداء الغاية من كذا إلى كذا» (سيبويه و تحقيق عبد السلام محمد هارون، ١٩٨٨ م، صفحة ٤ / ٢٣١).

وذكر لها النحاة ثمانية معانٍ، منها: انتهاء الغاية في الزمان والمكان وهو أصل معانيها، وأن تكونَ بمعنى (مع)، ومنها التبيين، وموافقة اللام، وموافقة (في)، ومنها موافقة (من)، وموافقة (عند)، وتأتي زائدة (الأنصاري و تحقيق محمد محيي الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، د.ت، صفحة ١ / ٧٥).

ومن معانيها عند العيني:

(إلى) بمعنى (مع)، قال العيني في توجيه البيت الشعري: (الذبياني و تحقيق محمد أبو الفضل، ٢٠٠٩، صفحة ٣٥)

قَالَتْ أَلَا لَيْتَنَا هَذَا الْحَمَامُ لَنَا  
إِلَى حَمَامَتِنَا أَوْ نَضْمُهُ فَقَدِ

قوله: (إلى حمامتنا) كلمة (إلى) ههنا بمعنى المعية، أي: مع حمامتنا، كما في قوله تعالى: {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ} [آل عمران: ٥٢]، أي: مع الله» (العيني و تحقيق علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وع، المقاصد

النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، ٢٠١٠م، صفحة ٢/٧٤١).

(إلى) بمعنى (عند)، قال العيني في شرح حديث عبد الله بن أبي المكي قال: «صليتُ إلى جنب عبد الله بن عمر، فلما قضى صلاته ضربَ يده على فخذي فقال: ألا أعلمك تحية الصلاة كما كان النبي ﷺ يعلمنا... الحديث» (العيني) وتحقيق أبي تميم ياسر، نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، ٢٠٠٨م، صفحة ٤/٢٦٣).

«قوله: (صليتُ إلى جنب عبد الله) بمعنى صليتُ عنده؛ لأنَّ (إلى) تجيء بمعنى موافقة (عند)، وأصل (إلى) لانتهاؤ الغاية الزمانية أو المكانية» (العيني) وتحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، ٢٠٠٨م، صفحة ٤/٤٦٦).

وقال في موضع آخر: «وكلمة (إلى) تجيء بمعنى (عند) كما في قول الشاعر: (الهذلين، ١٩٧٣، صفحة ٨٩/٢)

أَمْ لَا سَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ وَذَكَرِهِ أَشْهَى إِلَيَّ مِنَ الرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

أي: ذكره أشهى عندي من الشراب الخالص الراق «(العيني) وتحقيق أبي تميم ياسر، نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، ٢٠٠٨م، صفحة ١٤/٦٥).

(إلى) بمعنى (في)، قال العيني في شرح حديث أبي سعيد الخدري في مواقيت الصلاة: «وصلى العشاء إلى ثلث الليل الأول، وعلى الصحيح حين كادت الشمس أن تطلع... الحديث» (الطبراني) وتحقيق حمدي بن عبد المجيد، دت، صفحة ٦/٣٧).

«قوله: (وصلى العشاء إلى ثلث الليل) يجوز أن يكون (إلى) ههنا بمعنى (في) أي: أصلي في ثلث الليل، ومنه قوله: {لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [النساء: ٨٧]، أي: في يوم القيامة» (العيني) وتحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، ٢٠٠٨م، صفحة ٣/١٤٩).

رابعاً: في: قال العيني: «كلمة (في) وهو للظروف، ويقال: للوعاء، ويقال: للاشتغال، نحو: المال في الكيس» (العيني ب.، وسائل الفئة في شرح العوامل المائة، ٢٠٠٨م، صفحة ٢٤).

وهو حرف جر يفيد الظرفية الزمانية نحو: جئتُ في يوم الجمعة، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ} [البقرة: ٦٥].

والظرفية المكانية نحو: (الدَّراهم في الكيس)، وقد تكون ظرفية مجازية، نحو: سأمشي في حاجتك، جعلت الحاجة مكاناً للمشي (الأنصاري و تحقيق محمد محيي الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، د.ت، صفحة ٢٢٣) (السامرائي، ٢٠٠٠، صفحة ٥٧/٣).

ذكر سيويوه أن (في) فهي للوعاء تقول: هو في الجراب، وفي الكيس (سيويوه و تحقيق عبد السلام محمد هارون، ١٩٨٨ م، صفحة ٢٢٦/٤)، وقال المبرد: «وأما (في) فهي للوعاء نحو: زيد في الدار... وقد يُتسع القول في هذه الحروف، وإن أكن ما بدأنا به الأصل نحو قولك: زيد ينظر في العلم، فصيرت العلم بمنزلة المتضمن» (المبرد و تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة، ١٩٩٤، صفحة ١٣٩/٤).

فمعنى (في) الظرفية وإن اتسعت في الكلام، وقد ذكر لها النحاة معاني هي في الحقيقة توسع في معنى الظرفية، منها:

تكون بمعنى (الباء)، وبمعنى (مع)، وبمعنى (إلى)، وبمعنى (على)، وبمعنى (من)، وبمعنى (بين) (المرادي و تحقيق فخر الدين قباوة، ١٩٩٢، صفحة ٢٥٠).

ومن أمثلة معانيها عند العيني:

(في): بمعنى: (على)، قال العيني في توجيه الشاهد الشعري: «أَمِنْ دِمْنَتَيْنِ عَرَجَ الرَّكْبُ فِيهَا تَجَعَلُ الرَّخَامَى قَدْ عَفَا طَلَلَاهُمَا (الشماخ و تحقيق صلاح الدين الهادي، ١٩٦٨، صفحة ٣٠٧)، قوله: (فيها) أي: عليها؛ لأنَّ عرج يُستعمل بعلی لا بفي يقال: عرج عليه، وفي تجيء بمعنى على كما في قوله تعالى: {وَأَصْلَبْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ} [طه: ٧١]، أي: عليها» (العيني و تحقيق علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وع، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، ٢٠١٠ م، صفحة ١٤٥٣/٣).

(في): بمعنى: (بين)، قال العيني في شرح حديث محمد بن عمرو بن عطاء، قال: سمعت أبا حميد الساعدي في عشرة من أصحاب النبي ﷺ منهم أبو قتادة... الحديث «(أبو داود و تحقيق محمد محيي الدين، د.ت، صفحة ١٩٤/١). قوله: (في عشرة) أي: بين عشرة، وكلمة (في) تجيء بمعنى بين كما في قوله تعالى: {فَأَدْخِلْ فِي عِبَادِي} [الفجر: ٢٩]، أي: بين عبادي» (العيني و تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، ٢٠٠٨ م، صفحة ٥٠٨/٣).

(في): بمعنى: (من)، قال العيني في شرح حديث ابن عباس قال: «اغتسل بعض أزواج النبي ﷺ في جفنة، فجاء النبي ﷺ ليتوضأ منها، فقالت له: يا رسول الله إني كنت جنباً، فقال رسول الله: إن الماء لا يجنب» (أبو داود

و تحقيق محمد محيي الدين، د.ت، صفحة ١٨ / ١). «قوله: (في جفنة) (في) ههنا بمعنى (من) أي: اغتسلت من جفنة كان فيها ماء؛ لأنه لا يُتصور أن يُجعل (في) على حقيقته، وقد جاء (في) بمعنى (من) في قول الشاعر (امرؤ القيس، ١٩٩٠، صفحة ٢٧):

وَهَلْ يَعْْمَنُ مَنْ كَانَ أَحَدَتْ عَهْدِهِ  
تَلَاثِينَ شَهْرًا فِي ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ

(أبو داود و تحقيق محمد محيي الدين، د.ت، صفحة ١ / ٢٠٤).

هذه بعض المواطن التي وردت في كتب العيني والتي قال فيها بالتناوب في حروف الجر، وليس القصد إحصاؤها فهي كثيرة لا يسعها البحث.

وإنما القصد إيضاح جانب من جوانب الاتساع وهو التناوب في حروف الجر عند العيني، وموقفه منه، والذي يراه الباحث بعد استقراء كتب العيني أنه يأخذ بقول الكوفيين في جواز إنابة حروف الجر بعضها عن بعض فقد صرح بالجواز في شرحه لحديث، قال: «قلت: (من) إن استعمل بمعنى (إلى) في كون كل منهما للغاية؛ لأن (من) لا ابتداء الغاية، و(إلى) لا انتهاء الغاية، يجوز ذلك لأن الحروف ينوب بعضها عن بعض» (العيني ب.، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، د.ت، صفحة ٣ / ٣٤).

## ٦. استعمال المضارع موضع الماضي

قال العيني في شرح حديث حمزة بن عبد الله بن عمر أن ابن عمر قال: «سمعت رسول الله ﷺ قال: بينا أنا نائمٌ أتيتُ بقدر لبن فشربتُ حتى أرى الرِّيَ يخرج في أظفاري... الحديث» (البخاري و تحقيق محمد زهير، ١٤٢٢هـ، صفحة ١ / ٢٧).

«فيه استعمال المضارع موضع الماضي، وهو قوله (يخرج)، وكان حقه أن يُقال: خرج، ولكنه أراد استحضار صورة الرؤية للسامعين قصدًا إلى أن يبصرهم تلك الحالة وقوعًا وحدوثًا» (العيني ب.، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، د.ت، صفحة ٢ / ٨٧).

أي: جاءت فيه صيغة المضارع بدلًا من صيغة الماضي، جريًا على عادة العرب في الاستعمال، إذ يستعملون المضارع تعبيرًا عن الماضي، وهذا الأسلوب شائع في لغة العرب، وهو كثير كما ذكر ابن ولاد (ت ٣٣٢هـ) (ابن ولاد و تحقيق زهير عبد المحسن، ١٩٩٦، صفحة ١٩٤).

وعده الثعالبي من سنن العربية في الاستعمال، فيأتي الفعل بلفظ الماضي وهو مستقبل، ولفظ المستقبل وهو

ماض، كقوله تعالى: {أتى أمرُ الله} [النحل: ١] أي: يأتي، وقوله: {فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى} [القيامة: ٣١] أي: لم يصدق، ولم يصل، ويأتي الماضي بلفظ المستقبل، كقوله تعالى: {فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ} [البقرة: ٩١] أي: لم قتلتم (الثعالبي وتحقيق عبد الرزاق المهدي، ٢٠٠٢م، صفحة ٢٢٨).

ووجه الاتساع فيه أنه خروجٌ على مقتضى الظاهر، إحصاراً للصورة الحدث، وإنما يعتمدُ إليه، ويُعمل به إذا عُرف المعنى ولم يكن هناك التباس أو غموض، والدلالة البلاغية لهذا العدول هي استحضار صورة الحدث الذي وقع في الماضي كأنه يحدث الآن كما ذكر العيني أن: «المقصود حكاية الحال الماضية، واستحضار تلك الصورة الواقعة للحاضرين» (العيني ب.، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، د.ت، صفحة ١/١٦٦).

قال ابن هشام: «إِثْمٌ يُعْرَبُونَ عَنِ الْمَاضِي كَمَا يُعْرَبُونَ عَنِ الشَّيْءِ الْحَاضِرِ، قَصْدًا لِإِحْضَارِهِ فِي الذَّهْنِ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُشَاهِدٌ حَالَةَ الْإِخْبَارِ» (الأنصاري وتحقيق محمد محيي الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، د.ت، صفحة ٩٠٥).

ومن ذلك قوله تعالى: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاہُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِہَا كَذَلِكَ النُّشُورُ} [فاطر: ٩].

فاستعمل صيغة المضارع (فتثير) مع أن ما قبلها صيغة الماضي (أرسل) وذلك لاستحضار الصورة الدالة على قدرة الله الباهرة من إثارة السحاب، وكأتمها تحدث الآن، قال الزمخشري مُعللاً: «ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية...»

كما قال تابط شراً (تابط شراً وتحقيق عبد الرحمن المصطاوي، ٢٠٠٣، الصفحات ٧٤-٧٥):

بَابِي قَدْ لَقِيتُ الْغَوْلَ تَهْوِي بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحَّصَحَانِ

فَأَضْرِبُهَا بِإِلَاحِ دَهَشٍ فَحَرَّتْ صَرِيْعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلجِرَانِ

لأنه قصد أن يُصورَ لقومه الحالة التي تُشجعُ فيها بزعمه على ضرب الغول، وكأنه يُصرهم إياها، ويُطلعهم على كنهها، مُشاهدةً للتعجب من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدة» (الزمخشري م.، ١٤٠٧هـ، صفحة ٦٠١/٣).

## الخاتمة

خلص البحث إلى جملة من النتائج، من أبرزها:

أظهرت الدراسة أن الحمل على المعنى ظاهرة أصيلة في العربية، وأنه لا يمثل خروجاً شاذاً على النظام النحوي، بل يُعدّ مظهرًا من مظاهر الاتساع اللغوي الذي يعبر عن مرونة العربية وقدرتها على استيعاب مقتضيات الدلالة والسياق.

بيّنت الدراسة أن المعنى عنصرٌ حاكم في توجيه الحكم النحوي، وأنّ ظاهر اللفظ لا يكفي وحده في تفسير كثير من التراكيب العربية، بل لا بدّ من مراعاة القرائن الدلالية والسياقية التي تمنح التركيب وظيفته النهائية.

كشفت الدراسة أن بدر الدين العيني كان ذا وعيٍ دقيقٍ بالعلاقة بين النحو والدلالة، وأنه لم يقف عند حدود الصناعة الإعرابية الظاهرة، بل تجاوزها إلى تفسير الظواهر اللغوية في ضوء المعنى الذي يقتضيه السياق.

أثبتت الدراسة أن معالجة العيني للحمل على المعنى تمثل شاهداً واضحاً على استمرار الحسّ الدلالي في التراث النحوي المتأخر، وأنّ النحو عنده لم يكن قائماً على الجمود الشكلي، بل على الموازنة بين الأصل النحوي ومقتضى الاستعمال.

انتهت الدراسة إلى أن صور الحمل على المعنى عند العيني جاءت متعددة، ومن أبرزها: اكتساب المضاف التأنيث من المضاف إليه، واكتسابه التذكير منه، وإطلاق (من) على غير العاقل، ومخاطبة الواحد بلفظ الاثنين، ونيابة بعض حروف الجر عن بعض، وهي صور تكشف عن سعة هذا الباب وعمق حضوره في التحليل اللغوي.

أوضحت الدراسة أن العدول عن الأصل في هذه الصور ليس عدولاً اعتباطياً، وإنما هو انتقالٌ منضبط إلى مقتضى المعنى، تؤيده شواهد العربية الموثوقة، وتسوّغه القرائن التي تحكم الاستعمال.

بيّنت الدراسة أن الحمل على المعنى ظاهرة محكومة بضوابط، وليست باباً مفتوحاً بلا حدود؛ إذ لا يُصار إليه إلا إذا وجدت علاقة معنوية معتبرة أو قرينة سياقية ظاهرة تجعل الحمل على المعنى أولى من الوقوف عند ظاهر اللفظ.

أثبتت الدراسة أن الاتساع اللغوي في العربية لا يناقض القاعدة النحوية، بل يكشف مرونتها وعمقها، وبيّن أن القاعدة العربية أوسع من أن تُفهم فهماً جامداً منفصلاً عن الاستعمال الحي.

أكدت الدراسة أن البحث في الحمل على المعنى يبرز التكامل العضوي بين البنية النحوية والنظام الدلالي، ويظهر أن المعنى ليس عنصراً تابعاً للتركيب، بل هو في كثير من المواضع القوة الموجهة له.

## قائمة المصادر والمراجع

### \*القرآن الكريم.

١. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، البديع في علم العربية، (تحقيق فتحي أحمد علي الدين). مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ط١، ١٤٢٠هـ.
٢. ابن السراج، أبو بكر محمد بن السري، الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٩٦م.
٣. ابن الوردي، عمر بن مظفر، شرح ألفية ابن مالك المسمى تحرير الخصاصة في تيسير الخلاصة، تحقيق عبد الله بن علي الشلال، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ٢٠٠٨م، جزآن.
٤. ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٤، ١٩٩٩م.
٥. ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي النجدي ناصف، وعبد الحليم النجار، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٤م.
٦. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.
٧. ابن دريد، محمد بن الحسن. جمهرة اللغة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٧.
٨. ابن سيده، إسماعيل بن عباد بن العباس. المحكم والمحيط الأعظم، تحت: عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠.
٩. ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، ط٢٠، ١٩٨٠م.
١٠. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، الصحاحي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

١١. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط٢، ١٩٧٩.
١٢. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
١٣. ابن هشام الأنصاري، عبد الله بن يوسف، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.
١٤. ابن هشام الأنصاري، عبد الله بن يوسف، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.
١٥. ابن ولاد، أبو العباس، أحمد بن محمد بن ولاد التميمي النحوي، الانتصار لسيبويه على المبرد، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
١٦. أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري. أساس البلاغة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨.
١٧. أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك، تحقيق علي محمد فاخر، وأحمد محمد السوداني، وعبد العزيز محمد فاخر، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م.
١٨. أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، سنن أبي داود، محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د.ت).
١٩. الأزهري، خالد بن عبد الله، شرح التصريح على التوضيح، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
٢٠. امرؤ القيس، حندج بن حجر الكندي، ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٩٠م.
٢١. الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٣م.

٢٢. البخاري، بن إسماعيل أبو عبد الله، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢هـ.
٢٣. البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٤، ١٩٩٧م.
٢٤. البغدادي، عبد القادر بن عمر، شرح أبيات مغني اللبيب، تحقيق عبد العزيز رباح، وأحمد يوسف دقاق، دار المأمون للتراث، دمشق، ط ٢، ١٩٨٩م.
٢٥. تأبط شرًا، ثابت بن جابر بن سفيان الفهمي، ديوان تأبط شرًا، شرح وتحقيق: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م.
٢٦. التوحيد، أبو حيان علي بن محمد بن العباس، الإمتاع والمؤانسة، (تحقيق مرسل فالح العجمي). بيروت: دار صادر ٢٠٠٥م.
٢٧. الثعالبي، عبد الملك بن محمد، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٢م.
٢٨. الخطيب، محمد عبد الفتاح، ضوابط الفكر النحوي: دراسة تحليلية للأسس الكلية التي بنى عليها النحاة آراءهم، مصر: دار البصائر، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.
٢٩. ديوان الهذليين، ترتيب وتعليق: محمد محمود الشنقيطي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م.
٣٠. الرمالي، ممدوح عبد الرحمن، العربية والوظائف النحوية: دراسة في اتساع النظام والأساليب، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط ١، ١٩٩٦م.
٣١. الزركلي، خير الدين، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٥، ٢٠٠٢م.
٣٢. الزمخشري، محمود بن عمر، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

٣٣. السامرائي، فاضل صالح، معاني النحو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٠م.
٣٤. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
٣٥. سيبويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.
٣٦. السيوطي، جلال الدين، همع الهوامع في شرح جمع، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، المكتبة التوفيقية، مصر، ط١، (د.ت).
٣٧. الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ٢٠٠٧م.
٣٨. شبانة، حسن محمود، ظاهرة الاتساع في النحو العربي، عمان، الأردن: دار الفتح للدراسات والنشر، ط١، ٢٠١١م.
٣٩. الشياخ، ابن ضرار بن حرملة الذبياني (ت: ٥٢٢هـ)، ديوان الشياخ بن ضرار الذبياني، تحقيق: صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٦٨م.
٤٠. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم، المعجم الكبير، حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، (د.ت).
٤١. العلائي، صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي بن عبد الله الدمشقي، الفصول المفيدة في الواو المزيدة، (تحقيق حسن موسى الشاعر). عمان: دار البشير، ط١، (١٩٩٠).
٤٢. العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية المشهور بشرح الشواهد الكبرى، تحقيق علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وعبد العزيز محمد فاخر، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.
٤٣. العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، شرح سنن أبي داود، تحقيق أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٩٩٩م.

- ٤٤ . العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- ٤٥ . العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط ١، ٢٠٠٨ م.
- ٤٦ . العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، وسائل الفئدة في شرح العوامل المائة، تحقيق محمود محمد العمودي، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، العدد ٢، ١٩٩٧ م.
- ٤٧ . الغول، عطية نايف، الاتساع اللغوي بين القديم والحديث، عمان: دار البيروني للنشر والتوزيع (٢٠٠٨).
- ٤٨ . الفراء، يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، د.ت.
- ٤٩ . فضل، صلاح، علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، ٢٠٠٩ م.
- ٥٠ . القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٤ م، ٢٠ جزءاً.
- ٥١ . كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- ٥٢ . المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٧ م.
- ٥٣ . المبرد، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الشامي الأزدي، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤ م.
- ٥٤ . مجنون ليلي، قيس بن الملوح، ديوان قيس بن الملوح مجنون ليلي، رواية أبي بكر الوالبي، تحقيق: يسرى عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
- ٥٥ . المرادي، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن علي، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، تحقيق عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، ط ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨ م.

٥٦. المرادي، الحسن بن قاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
٥٧. المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب: دراسات نقدية، دار سعاد الصباح، ١٩٩٣م.
٥٨. مسلم، بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
٥٩. النابغة، أبو أمامة زياد بن معاوية الذبياني (ت: ١٨ ق.هـ)، ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩م.
٦٠. الهروي، علي بن محمد، الأزهية في علم الحروف، تحقيق عبد المعين الملوحي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ط١، ١٩٧١م.
٦١. ياقوت الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

## The concept of "carrying meaning" in Badr al-Din al-Ayni's (d. 855 AH) grammar and semantic study

Assistant Dr. Salah Farhan Shtewi Salem Al-Anzi

This study examines a prominent syntactic-semantic phenomenon in Arabic, namely carrying according to meaning as a manifestation of linguistic expansion, with particular focus on its occurrences in the works of Badr al-Din al-‘Ayni (d. 855 AH). The study seeks to trace the applications of this phenomenon in al-‘Ayni’s writings and to analyze them in light of the views of early grammarians, in order to reveal the role of meaning in directing syntactic structure. The study shows that carrying according to meaning is not an arbitrary departure from grammatical rule; rather, it is a system governed by semantic and contextual considerations that enriches the language and grants it expressive flexibility. The study also highlights a number of applied issues, such as the genitive construct’s acquiring femininity or masculinity, the use of man for non-rational referents, addressing one person with the dual form, and the substitution of one preposition for another, as representative manifestations of this linguistic expansion.

Keywords: carrying according to meaning, linguistic expansion, Badr al-Din al-‘Ayni, syntactic semantics, and grammatical interpretation.